الفطـــرة (معانيها ومكمّلاتها ومفسداتها)
"دراسة موضوعيّة في القرآن الكريم"

✍ **د. إبراهيم بن خالد المخلف** (★)

المقدّمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله، أرسله ربه على فترة من الرسل ليبين لهم ويردهم إلى دين الله القويم تلك الفطرة التي فطر الناس عليها إذ لا تبديل لدين الله فجزاه الله خير ما جزى نبي عن قومه ورسولاً عن أمّته

وبعد

فإن من تدبر القرآن حق تدبره وتلاه حق تلاوته يتأكد تماماً أن الله قد خلق الخلق على الفطرة، وأمرهم بتعظيمها، ووصف الدين بها في سياق حثه وحذر العباد من تغييرها وتبديلها مبيناً أن اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه، وجعله مستقيماً قيماً لجميع ما احتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم، كما تلاحظ أن القرآن الكريم يأمر ويرشد ويوجه للأخذ

(★) أستاذ بجامعة الجوف بالمملكة العربية السعودية

بما يحمل الفطرة على الاستقامة ويحذر من الأخذ بما يعرض الفطرة للانحراف ويبتعد بها عن الجادة وذلك في آيات كثيرة وأحاديث جمة

ولذا اتّجه فكري للخوض في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لأتبين الإمور التي تصون الفطرةَ وتقوم سبيلها، والأمور التي من شأنها أن تنحرف بالفطرة وتردّها عن جادّتها فاخترت هذا الموضوع وسمّته (الفطرة مكمّلات ومفسداتها ومعانيها) دراسة موضوعيّة في القرآن الكريم

أهميّة الموضوع

تكمن أهمية هذا الموضوع في الآتي

1/ تعلّق هذا الموضوع بالقرآن الكريم يكسبه أهميته حيث يجول الباحث حول الآيات ليتبين السبيل لكل مكلّف حتى يسلك السبيل السليم

2/ الآيات القرآنية التي تتحدث عن الدين والفطرة تحتاج للوقوف على معانيها حتى يتبين السالك الطريق الصحيح

3/ الحديث في هذا الموضوع حديث عن الحنيفية السمحة

أهداف الموضوع

المقصد الأساسي للكتابة في هذا الموضوع هو إبراز الأهداف التّالية

1/ الإنسان مفطور على الإسلام منذ الأزل

2/ بيان الأمور التي تعترض طريق الفطرة الحنيفية وتردها عن سبيلها

3/ بيان الأمور التي توقظ الفطرة وتنشطها وتضعها في جادة الطريق

منهج الباحث في دراسة هذا الموضوع

يقوم البحث في هذا الموضوع على المنهج الاستقرائي التحليلي حيث يعمل الباحث على

1/ جمع الآيات المتعلّقة بالموضوع وتقسيمها على مباحث الدراسة حسب ما تقتضيه الضرورة

2/ الوقوف على أقوال أهل العلم في تفسير الآيات القرآنية وترجيح الراجح منها حسب الدليل

3/ الوقوف على الآثار من السنة وتدعيمها بالآيات المتعلقة بالفطرة وترجيح الراجح منها حسب الدليل

4/ عز الأقوال إلى قائليها والمصادر التي أُخذت منها ، مع الإشارة إليها في الهامش بالحرف (ج) للجزء والحرف (ص) للصّفحة وهكذا

5/ إثبات الآيات القرآنية وأسماء سورها وأرقامها في صلب الدراسة

6/ الترجمة للأعلام غير المشاهير

هيكل البحث

يتألّف هذا البحث من

1/ مقدمة وتشمل

أهمية الموضوع وأهدافه ومنهج الباحث في دراسته

2/ صلب الموضوع ويتكون من ثلاثة مباحث على النّحو التّالي

المبحث الأوّل معاني الفطرة

المبحث الثاني مُكمّلات الفطرة

المبحث الثالث مُفسدات الفطرة، وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأوّل اتّباع الشّيطان

المطلب الثّاني بيئة الكفر

المطلب الثالث قُرناء السّوء

المبحث الأوّل

معاني الفطـــرة

المطلب الأوّل الفطرة في:اللّغة

بالنّظر في معاجم اللّغة العربية(1) وكتب غريب القرآن والحديث (2)نجد أن أصل كلمة "فطْرة هو "فَطَرَ فالفاء والطّاء والرّاء أصل صحيح

"والفطْرة بكسر الفاء وسكون الطاء على وزن فعلة وهي الحالة من "فطْر كالجلسة والركبة ومعنى هذه الكلمة في اللغة يدور على عدة معان:منها

فطر – بالفتح – أي الشّقّ وهو الأصل في المعنى وقيده بعضهم بأنّه الشّقّ الأوّل أو الشّقّ طولاً وجمعه "فطْور أي شقوق وشواهد هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة منها قولـه تعـالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ ﴾ [سـورة الشورى ٥] وقوله تعالى: ﴿ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ﴾ (سـورة الملك ٣). وقوله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴾(سـورة المزمل: 18) وقوله تعالى: ﴿إِذَا

(1) انظر مادة (فطر) في كتاب العين 7/417- 418 للخليل بن أحمد الفراهيدي وجمهرة اللغة 2/370- 371 لابن دريد وتهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري 13/325- 330 ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس 4/510 والقاموس المحيط للفيروز آبادي 587 والصحاح للجوهري 2/781 ولسان العرب لابن منظور 5/55- 59 والمغرب لابن المطرز 2/143- 144 وتاج العروس للزبيدي 13/325- 332 والمصباح المنير لابن المقري 2/476- 477 وغيرها من المعاجم اللغوية

(2) انظر المفردات في غريب القرآن للأصبهاني 575 وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي 3/284 والفائق في غريب الحديث للزمخشري 3/126- 128 والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير 3/457 ومجمع بحار الأنوار لمحمد الصديقي الكجراني 4/154- 156 وغريب الحديث لابن الجوزي 2/199- 200 وغريب الحديث لأبي عبيد 3/299- 300 .

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾(سورة الانفطار ١) ومن شواهده في الحديث الشريف ما ورد في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ " كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه "[1] أي تَشقّق

ومن شواهد الفطر بمعنى الشق في كلام العرب من قول تحية بن جنادة

شقق القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطور[2]

وفي الأثر المروي عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – حين قال" ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأت حفرها "[3].

وفي قوله تعالى ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾(سورة المزمل ١٨) إشارة إلى معنى آخر من معان الفطر وهو القبول فقوله" منفطر"به إشارة إلى قبولها ما اقتضاه خلقه وإبداعه لها"[4].

وأطلق العرب "الفطْر أيضاً على الشيء الحديث الذي لم يمر على حدوثه زمن حتى يتأثر أو يتغير بل هو باقٍ على أصله ومنه قولهم "الفطْر – بالوجهين: شيء قليل من اللبن يحلب ساعتئذٍ وقولهم حيس فطير أي طري قريب حديث العمل وفطر العجين اختبزه

([1]) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ حتى تتورم قدماه 44/2 وفي كتاب التفسير باب قوله ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك 45/6 وفي كتاب الرقاق باب الصبر على محارم الله 183/7 وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب صفات المنافقين باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العباد 2171/4- 2172 حديث رقم 2819- 2820 .

([2]) لسان العرب الجزء 6 303/4 مادة ذرر – دار صادر وقيل هو من قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود

([3]) أخرجه ابن جرير بسنده في التفسير 158/5 وعزاه السيوطي في تفسيره إلى أبي عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن المنذر وابن حاتم والبيهقي في شعب الإيمان أنظر الدر المنثور 3/7 .

([4]) أنظر المفردات في غريب القرآن للأصبهاني 575 .

من ساعته ولم يخمره وشر الرأي الفطير أو إياك والرأي الفطير وهو الذي لم يترو فيه صاحبه ولم يحكمه فبقى على حاله من البساطة[1].

المطلب الثاني الفطرة في الاصطلاح

اختلف أهل العلم في معنى الفطرة فقيل: هي بمعنى الإقرار بمعرفة الله تعالى، وقيل بمعنى الإسلام والدين والملة[2].

وقد اختلف العلماء في معنى الفطرة المذكورة في الكتاب والسنة على أقوال فقيل يولد على الفطرة أي على الإسلام وقيل على الإقرار بمعرفة الله تعالى وهو العهد الذي أخذه الله على بني آدم وهم في أصلاب آبائهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ (سورة الأعراف: 172) وقيل يولد على الفطرة أي على السلامة من كل اعتقاد فلا يولد على كفر ولا إيمان[3].

وظاهر القرآن والسنة أن المقصود بالفطرة اقتضاء الإسلام والميل إليه والرغبة فيه يدل على هذا أن الرسول ﷺ ذكر أن الانحراف عارض للمولود بسبب خارج عنه وأشار إلى أقوى هذه الأسباب وهما الأبوان ولم يقل يُسلمانه لأنّ الإسلام مستقرّ في نفسه ويدلّ على هذا أيضاً حديث عياض المجاشعيّ[4] عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال "خلقت

([1]) الفطرة حقيقتها ومذاهب الناس فيها لعلي بن عبد الله القرني ص 25 ط1 1424هـ 2003م دار المسلم

([2]) أنظر شفاء العليل 2/ 775 وما بعدها شمس الدين بن قيم الجوزية مكتبة العبيكان ط1/ 1420هـ

([3]) انظر تفصيل ذلك في القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج 14 ص 25 وما بعدها ابن القيم – شفاء العليل ص 283 وما بعدها مكتبة الرياض الحديثة ط 1 سنة 1323هـ البغوي – شرح السنة تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط ج1 ص 157 المكتب الإسلامي ط1 سنة 1390هـ

([4]) اض بن حمار التميمي المجاشعي صحابي سكن البصرة وعاش إلى حدود الخمسين انظر الإصابة (48/3) تقريب التهذيب 437.

عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا"[1].

قال ابن القيم "دلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السّلف على أن الخلق مفطورون على دين الله الذي هو معرفته والإقرار به ومحبته والخضوع له، وأن ذلك موجب فطرهم ومقتضاها يجب حصوله فيها إن لم يحصل ما يعارضه ويقتضي حصول ضده، وأن حصول ذلك فيها لا يقف على وجود شرط بل على انتفاء المانع فإذا لم يوجد فهو لوجود منافيه لا لعدم مقتضيه ولهذا لم يذكر النبي ﷺ لوجود الفطرة شرطاً بل ذكر ما يمنع موجبها حيث قال: " فأبواه يهودانه وينصرانه ويُمجّسانه [2]"

المبحث الثّاني

مكمّـلات الفطــرة

(1) واه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار 2197/4 حديث 2865 .

(2) متفق عليه وقد سبق تخريجه

لقد عظّم الإسلام أمر الفطرة وشأنها حيث وصف القرآن الكريم الدين بها وأمر باتباعها وحذّر العباد من تغييرها مبيّناً أنّ اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه وجعله مستقيماً قيماً لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم قال تعالى :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الروم ٣٠) .

ومن تعظيم الإسلام للفطرة أنه جعلها الأساس السابق لأي دليل شرعي أو عقلي، وجعل لها مكمّلات منها :

المطلب الأوّل رسالة الرسل

إن إرسال الرسل وإنزال الكتب لهو من أهم الأسباب لسلامة الفطرة وإيقاظها وتكميلها لأن الفطرّة مركوز فيها معرفة الله ومحبته والإخلاص له والإقرار بشرعه وإيثاره على غيره فهي تعرف ذلك وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبّهها عليه وتفصله لها وتبينه وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتفائها أثرها وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر وإباحة طيب وتحريم خبيث وأمر بعدل ونهي عن ظلم وهذا كله مركوز في الفطرة وكمال تفصيله وتبيينه موقوف على الرسل "[1] .

فرسالة الرسل – عليهم السلام – وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكرة بها وهذا ما بينه القرآن الكريم في عدة مواضع منها

(1) شفاء العليل لابن القيم 513 .

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (سورة الغاشية ٢١.) وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (سورة ق ٣٧). وغيرها من الآيات

فهذه الآيات التي جاءت تبين أن الرسول ﷺ مذكر والقرآن تذكرة والدين ذكرى" فإن أكثر الناس غافلون عما فطروا عليه من العلم فيذكرون بالعلم الذي فطروا عليه. ولهذا توصف الرسل بأنهم يذكرون ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة ويُؤمر الناس تارة بالتذكرة وتارة بالتبصرة ثم يؤمر الناس أن يقروا بما عملوه ويشهدوا به فلا يعاندونه ولا يجحدونه وأكثر الكفار جحدوا ما علموه"[1].

فالرسل – عليهم السلام – بعثوا – كما دلّت الآيات السّابقة – للتذكير وليس لإنشاء المعرفة بالله تعالى في قلوب الناس بعد أن لم تكن والدليل على ذلك أنه ليس في الرسل – عليهم الصلاة والسلام – من كلف قومه أولاً بالمعرفة أو بالأدلة الموصلة إليها فقال انظروا واستدلوا حتى تعرفوه إذ كانت قلوبهم مفطورة على معرفته والإقرار به ولكن عرض لها ما غيرها وبدلها فأرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب للتذكير بتلك الفطرة وما هو معلوم لها وتقويته وإمداده ونفي المغير له لكي يحصل الكمال إذ الكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة[2].

وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ (سورة الأنعام ٤٤) في هذه الآية شاهدان الأوّل

(1) جامع الرسائل ابن تيمية 16/1 .

(2) أنظر مجموع الفتاوى لابن تيمية 338/16 و 348 .

التّذكرة والثّاني النسيان فقولُه ذكرّوا دليل على أنهم كانوا يمتلكون سابق معرفة وكذلك قوله "نسّوا دليل آخر على أنه كان لديهم معرفة سابقة وهي الفطرة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله") الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها وتقويته وإمداده ونفي المغير للفطرة فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها لا بتغيير الفطرة وتحويلها والكمال يحصل بالفطرة المكملة بالشرعة المنزلة " [1] والأدلة العقلية تعتمد على الفطرة الصحيحة أيضاً

ولأنّ رسالة الرّسول ﷺ عامّة لكافّة البشر ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (سورة سبأ ٢٨) فإن آيات الذكرى والتذكرة – السابقة – تدل على أن القرآن تذكرة لكافة البشر سواء كانوا مؤمنين أو من أهل الكتاب أو ملحدين مما يكشف عن أن كل الناس في الأعصار الماضية والحالية والمستقبلية لهم معرفة فطرية بالأسس العامة للإسلام المتكررة في جميع الأديان السماوية وإلا فلن تصدق كلمة التذكرة على القرآن الكريم إذن فالتذكرة شاملة ومع أن طائفة خاصّة هي المستفيدة منها : ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (سورة الذاريات ٥٥)[2].

المطلب الثّاني الوالدان

تؤثر البيئة الأسرية (الوالدين) في الإنسان ويتسبب في تغيير سلوكه الذي وجد عليه سواءاً كان هذا المغير سبباً مادياً أو بشرياً أو معنوياً فهي تشمل المكان والإنسان والأفكار والعادات[3] .

([1]) مجموع الفتاوى لابن تيمية 348/16 .

([2]) العقيدة من خلال الفطرة آية الله جوادي 17 .

([3]) انظر دوافع إنكار الحق الملاحي 60

والإنسان كائن اجتماعي بطبعه لا يمكن أن يعيش حياته منعزلاً أو يستطيع أن يحقق حاجاته أو إشباع رغباته المادية والمعنوية بعيداً عن الآخرين[1] . وقد أشار الله إلى هذا الأمر في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (سورة الحجـرات ١٣) قال ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "[2] .

وحذر الله تعالى من طاعة الوالدين فيما يفسد الفطرة فقال سبحانه : ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾(سورة لقمان ١٥).

فالأسرة (الوالدين) هي اللبنة التي يبدأ منها التأثير على الطفل كما نص على ذلك الحديث السابق فمنها يبدأ التعليم والتأديب والتأثير ولأجل ذلك أولى الإسلام الأسرة أهمية كبرى حيث حض الإسلام على اختيار الزّوجة ذات الدين والخُلُق لما لذلك من أهمية في حفظ أولادها، وتنشئتهم النّشأة الصّالحة قال ﷺ (تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدّين تربت يداك)[3].

([1]) أنظر مجلة الأمن العام الفطرة الإنسانية للجناة 196 .

([2]) سبق تخريجه

([3]) متفق عليه أخرجه البخاري مع الفتح كتاب النكاح باب الإكفاء في الدين 35/9 حديث 5090 مسلم في صحيحه كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين 1086/2 حديث رقم 1466 .

لقد عظّم الإسلام أمر تربية الأولاد وحسن تأديبهم ومن الأحاديث الدالة على ذلك قوله ﷺ (لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدّق بصاع)[1]، وقوله – عليه الصلاة والسّلام" ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن" .[2] وحثّ على تعليمهم الصّلاة ومن الأحاديث في الأمر بالصّلاة قوله ﷺ" مروا أولادكم بالصّلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ")[3] الحديث وغيرها من العبادات والأخلاق الحسنة

وقد حثّ الإسلام كلّ فرد في الأسرة على أداء مسؤوليته قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ (سورة التحريم ٦) وقال ﷺ :" كلكم راعٍ ومسؤول.عن رعيته "[4] الحديث

المطلب الثّالث إدامة الفكر

إنّ التّفكّر والتّأمل في آيات الله تعالى ومخلوقاته والآئه الدالّة على عظمته وقدرته ووحدانيته وربوبيته من أنفع الأسباب المؤثرة في الفطرة وقد استخدم الرسل – عليهم الصلاة والسلام – هذا السبب لتحريك فطر الناس وإيقاظها من غفلتها فدعوا أقوامهم إلى تأمّل أنفسهم وتأمّل الكون من حولهم ومن الآيات التي أشارت إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ... أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣

([1]) أخرجه أحمد في مسنده برقم 20938 ، 21007 والترمذي في سننه كتاب البر والصلة باب ما جاء في أدب الولد 337/4 وقال عنه حديث غريب والطبراني في الكبير برقم 2032 والحاكم في المستدرك كتاب التوبة والإنابة 292/4 .

([2]) أخرجه أحمد في مسنده برقم 15439 و 16756 و 16763 .

([3]) رواه أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب متى يؤمر الغلام بالصلاة 133/1.

([4]) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن 304/1 ومسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب فضل الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم 1459/3 . حديث رقم 1829 .

خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾... [الآيات إلى قوله تعالى:] أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة النّحل ٢ –١٧) ففي هذه الآيات الجمع بين الدّعوة والاستدلال بالآفاق والأنفس وكل ذلك بتفصيل عجيب

ومن الآيات الشّاهدة على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (سورة الذّاريات ٢١) وقوله سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾(سورة الانفطار ٦ –٨). وقوله تعالى: فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة الطّارق ٥).

وقد اعترف بعض العلماء الغربيين بوجود الخالق – سبحانه وتعالى – وذلك نتيجة لتأملهم ودراستهم لقوانين الكون وأسرار الطبيعة التي أودعها الله في هذا الكون ومن أقوالهم في ذلك :

" إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد ابلغ من الإتقان والتّعقيد درجةً تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة إنه ملئ بالرّوائع والأمور التي تحتاج إلى مُدبر والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى ولا شكّ أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدّة وهي بذلك تزيد معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده." [1] وهكذا أثّر النّظر في هذا الكون في إيقاظِ فطرة هؤلاء العلماء حتى اعترفوا بوجود الخالق – سبحانه وتعالى – وسيتضح هذا المعنى جلياً في الآتي

أ) التّفكر في خلق الإنسان

(1) عقيدة التوحيد في القرآن الكريم لمحمد أحمد ملكاوي طبعة مكتبة الرشد بالرياض الطبعة الأولى

إنّ القرآن الكريم ـ وهو المصدر الأوّل من مصادر التّشريع الإسلامي ـ قد تناول قصّة خَلْق الإنسان، ابتداءً من خلق أصل البشرية آدم عليه السلام، وهو أوّل البشر على الإطلاق، مروراً بمن خُلِقَ بعده من البشر، وصولاً إلى محمد عليه الصلاة والسّلام وأُمّته الكريمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،

ومن هنا يرى بعضُ الفقهاء ، أنّ الإنسان ليس أفضلَ من كل الموجودات فقط، بل هو أفضل من الملائكة أيضاً أو من هو أفضل منهم في هذه الدار إذ هو متميز عنهم في الخَلق والأمر والنهي ، الملائكة يطيعون آدم ويخضعون له[1].

لقد استخلف الله الإنسان في الأرض، وحتى يتحقق له هذا الاستخلاف فلا بُدّ له من أن يُمَكِّنَ من استعمال الوسائل الماديّة التي تحقّق له هذا الأمر، فقد سُخِرَت لَهُ الموجودات جميعها، وَهُيِئَتْ لَهُ الأرض وَذُلِلَت لتكونَ طوعَ تصرّفه يزرعها لتنتج له ما يأكل، ويبني عليها بيتَ سكنه، ويسير في شِعابها وتلالها لمعاشِه ومباشرةِ أعماله، وسُخِرَ لَهُ البَحْرُ يركبه بالفلك والسُّفن والقوارب، ومنه يأكل طعامه، كما سُخّرت النباتات والأنعام له ولمعاشه

ولولا تمكينُ الله تعالى للإنسان، واعطاؤه السّيطرة بتسخير كل تلك الموجودات له، لما استطاع العيش في هذه الحَياة الدنيا، وبالرغم من كلّ هذه النِّعَم التي مَنَّ الله عليه بها ـ وهي كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصى ـ فإنّا نراهُ قليلاً ما يكون لله المُنعم الرازق المتفضل حامداً أو شاكراً، بل كثيراً ما نراه ضالاً شاطاً، كافراً بأنعم الله، جاحِداً فضله، [2] متبعاً خطوات الشيطان وجنده من دعاة الماديّة والوثنية والإلحادية والعصبية القبلية والقومية، كافراً بأنعم الله طوراً ومُشركاً به أطواراً، عاصياً أوامره مُسْتَحِلاً حرماته، متمرداً على كل النواميس والسُّنن التي سنها لهم الخالق المنعم.المدبر

([1]) النبهاني تقي الدين، التفكير، صفحة 6

([2]) موسوعة الخلق والنشوء، حاتم ناصر الشرباتي، 1424هـ 2002م مكتبة الإيمان – المنصورة .

قال ابن كثير" وذلك أنّه تعالى لّما خلق آدم عليه السّلام بيده من طين لازب ، وصَوَّرَهُ بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسّجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلآ إبليس لم يكن من السّاجدين ، وهذا الذي قُررناه هو اختيار "ابن جرّير أنّ المراد بذلك كلّه آدم عليه السّلام وقال سفيان الثّوري عن الأعمش بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس "ولقد خلقناكم ثم صورناكّم قال خلقوا في أصلاب الرجال وصوّروا في أرحام النّساء ونقل ابن جرير عن بعض السّلَف أيضاً أنّ المراد بخلقناكم ثم صورناكم (الذُّرِيَة.)[1] .

جاء في الظلال[2] لسيد قطب "إنّ الخَلق قد يكون معناه الإنشاء والتّصوير ، وقد يكون معناه إعطاء الصّورة والخصائص وهما مرتبتان في النّشأة.لا مرحلتانّ فإنّ "ثُمّ قد لا تكون للترتيب الزمني ولكن للترقّي المعنوي ، والتّصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود فالوجود يكون للمادة الخامة ، ولكن التّصوير- بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص - يكون درجة أعلى من من درجات الوجود فكأنّه قال إننا نمنحكم مجرد الوجود ، ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (سـورة طه ٥٠) وعلى أية حال فإنّ مجموع النّصوص القرآنية في خلق آدم عليه السّلام وفي نشأة الجنس البشري ، ترجح أنّ إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه وأنّ الترقي في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز الخصائص ونموّها وتوزيعها واكتسابها الخبرة العالية ، ولكن لم يكن ترقياً في وجود الإنسان من تطور حتى انتهت إلى الإنسانيّة كما تقول الدارّوينية

([1]) تفسير بن كثير ج2 صفحة 202- 203

([2]) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ج3 ، صفحة 1264- 1265

قال الأستاذ عبد الوهاب النّجار "خلقنا أصلكم الذي نسلكم وكنتم من أبنائه ، فَخَلْقُنا لَهُ خَلْقٌ لَكُمْ [1] قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (سورة الحجر ٢٦ –٣١) .

الصَّلصال هو المنتن من الطّين الحمأ هو الطين الأسود المنتن المسنون هو المتغيّر وجاء في "لسّان العرب" الصلصال من الطين ما لم يُجعل خزفاً، وكل ما جَفَّ من طينٍ أو فخار والمسنون هو المُصوَّرَ وهو المتغيِّر المنتن .والحمأ هو الطين الأسود المنتن من حمأ مسنون أي متغير منْتن [2].

أمّا أبو بكر الرّازي فيقول (الصَّلصال هو الطّين الحرّ خُلِطَ بالرّمل فصار يتصلصل إذا جفّ، فإذا طبخ بالنّار فهو الفَخار، والحمأ هو الطّين الأسود، والحمأ المسنون هو المتغيّر المنْتن [3] قال الدّكتور محمّد البهي" الصّلصال هو الطّين اليابس الذي له رنين وصوت، والحمأ هو الطّين الأسود المتغيِّر، والمسنون هو المصوّر والمصبوب، أي صورنا هيكل هذا المخلوق المعهود من طين يابس طال اختلاطه بالماء حتى تغيَّر واسود لونه "[4].

" الحمد لله ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (سورة الفرقان ٥٤)، والقائل عزّ من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا

(1) عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء ، صفحة 2

(2) أبن منظور ، لسان العرب، ج11، صفحة 382

(3) الرازي أبو بكر، تفسير الصحاح، صفحة 153 و 368

(4). د محمد البهي، تفسير سورة الحجر، صفحة 19

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (سورة الحجرات ١٣) والقائـل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴾ (سورة النساء ١) وجعل ارتباط الذّكر والأنثى وسيلة إلى استبقاء النّوع الإنساني وحفظه على الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وجعل مجال الالتقاء بطريق محدد مشروع هو النكاح ثم جعل ثمرة ذلك النكاح الولد والنسل الذي حببّ فيه ورغب إليه وجعل حبّه مركوزاً في فطرة الإنسان كما جعل ميل الرجل للمرأة وميل المرأة للرجل غريزة وفطرة

. . . ثم جعل الآيات العجيبة في خلق الإنسان وأطواره التي يمرّ بها من النّطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام كيف ينشزها ويرفع بنيانها إلى اللّحم يكسوها خلقاً بعد خلق في ظلمات ثلاث .

وأمرنا سبحانه بالتّفكر والنّظر في خلق الإنسان فقال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾ (سورة الطارق 5- 7)وجعل ذلك النّظر أحد الأدلة الباهرة على إعادة خلقه والبعث والنشور فقال عز وجل تكملة لشريط الخلق : ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ ﴾ (سـورة الطارق ٨ – ٩) .

واستعرض سبحانه وتعالى مراحل خلق الإنسان في شريط متكامل يبدأ من مرحلة الطين وينتهي بالموت ثم البعث والنشور في أكثر من موضع وأكثر من سورة فقال تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ

وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ (سورة الحج ٥ - ٦) ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (سورة المؤمنون ١٢ –١٦) وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾ (سورة غافر ٦٧ –٦٨) .

فسبحان من شملت قدرته كلّ مقدور وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور يخلق ما يشاء ، قال تعالى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (سورة الشورى ٤٩ –٥٠).

وسبحان من خلق فسوى وقدر فهدى وجعل الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى .ثم صوّرها بعد ذلك في الأرحام تصويراً﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ (سورة آل عمران ٦).

إنّ الأحاديث النّبوية الشّريفة التي شرحت هذه الآيات وأضافت إليها بُعداً جديداً كانت كذلك في غاية الوضوح إلاّ ما جاء منها حول تحديد موعد التّخليق فقد بدا فيها تعارض ظاهري في أوّل الأمر مثل الحديث" إذا مر بالنّطفة اثنان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً

فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها [1]. وحديث ابن مسعود إنّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً ثم يكون نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح [2].

والحكمة في خلق الإنسان من الذكر والأنثى خفية على النّاس ولو تمعنوا فيها لسجدوا لله شكراً على هذه النّعمة وكمّ من نعم تغمرنا آناء اللّيل وأطراف النّهار ونحن عنها غافلون سادرون بل متجبّرون كافرون

ولو خلق الإنسان من خلية واحدة تنقسم كما تنقسم الأميبا والبكتيريا[3] لأصبح ملايين البشر نسخة مملّة مكرّرة ولكن الله ربط التّناسل بالذّكر والأنثى بحيث ينفرد كلّ إنسان عن غيره حتى ولو كانا توأمين فالخلايا تحمل في طياتها جسيمات ملوّنة (الصبغات أو الكروموسمات) وهذه الأخيرة تحمل خصائص البشرية وخصائص الوراثة

وهكذا تتنوع البشر ويختلفون ويصبح كل فرد منهم مميزاً عن الآخرين وإن ارتبط بهم برباط النّسب ولحمة الدّم فالأصل واحد والنّاس لآدم وآدم من تراب ولكن شتان بين معادن الخير ومعادن الشّر وشتان بين نوح وابنه وبين إبراهيم.وأبيه وبين لوط وزوجته ونوح وامرأته وفرعون الجبار وآسيا المؤمنة الطاهرة النّقيّة "[4] .

ب) التّفكر في خـلـق السّـماوات والأرض

([1]) أخرجه مسلم في كتابه القدر باب كيفية الخلق الآدمي 2037/4 حديث 2645

([2]) متفق عليه صحيح البخاري مع الفتح كتاب التوحيد باب قوله تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) 449/13 حديث 7453 ومسلم كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمي 2036/4 حديث 2645 .

([3]) الأميبا والبكتيريا كائنات حية دقيقة لا ترى إلا بالمجهر .

([4]) خلق الإنسان بين الطب والقرآن. د محمد علي البار ص 5 وما بعدها

يشير القرآن الكريم في عدد من آياته إلى الكون وإلى العديد من مكوناته السموات والأرض وما بكل منهما من الأحياء والجمادات والظّواهر الكونية المختلفة وتأتي هذه الآيات في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة التي أبدعت هذا الكون بجميع ما فيه ومن فيه وفي مقام الاستدلال كذلك على أن الإله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته قادر على فنائه وقادر على إعادة خلقه من جديد وذلك في معرض محاجة للكافرين والمشركين والمشكّكين وفي إثبات الألوهية والوحدانية لربّ العالمين بغير شريك ولا شبيه ولا منازع ولا صاحبة ولا ولد"[1].

وقال تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (سورة الأنبياء ٣٠) هذه الآية الكريمة واضحة الدّلالة على أن الكون الذي نحيا فيه كون مخلوق له بداية بدأ الله تعالى خلقه من جرم ابتدائي واحد (مرحلة الرّتق) وهو القادر على كلّ شيء ثم أمر الله تعالى بفتق هذا الجرم الابتدائي فانفتق (مرحلة الفتق) وتحول إلى سحابة من الدخان (مرحلة الدخان) وخلق الله تعالى من هذا الدّخان كلاً من السماء والأرض وتعرف هذه المرحلة باسم (مرحلة الإتيان بكل من السماء والأرض) وقد جاء وصف المرحلتين الأخيرتين في الآية الحادية عشرة من سورة فصلت والتي يقول فيها ربنا سبحانه وتعالى موبخاً كل من الذين كفروا بالله تعالى فأنكروا الخلق أو أشركوا مع الله تعالى معبوداً آخر: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (سورة فصلت 12) .

قال تعالى ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن – السماء – د زغول النجار – ص 75 /78

وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (سورة آل عمران ١٩٠ – ١٩١).

وكان لنزول هاتين الآيتين وما تلاهما من آيات في السّورة نفسها وقع شديد على رسول الله ﷺ- الذي يروى عنه أنه قال عقب الوحي بها (ويل لمن قرأ هذه الآيات ولم يتفكر فيها)[1]. وواضح الأمر في ذلك أن التفكر في خلق السموات والأرض فريضة إسلامية لابد من قيام نفر من المسلمين بها لأنها عبادة من أجل وأعظم العبادات لله الخالق ووسيلة من أعظم الوسائل للتعرف على كل من حقيقة الخلق وحتمية الإفناء وضرورة البعث والتأكد على عظمة الخالق[2].

لقد جاءت مادّة خلْق بمشتقاتها في القرآن الكريم مائتين وإحدى وستين (261) مرة لتأكيد أن عملية الخلق هي عملية خاصة بالله تعالى وحده لا يشاركه فيها أحد ولا ينازعه عليها منازع ولا يقدر عليها غيره سبحانه وتعالى إلى.بإذنه

كذلك وردت لفظة السّماء في القرآن الكريم بالإفراد والجمع في ثلاثمائة وعشرة (310) مواضع منها مائة وعشرون (120) بصيغة الإفراد السّماء " ومائة وتسعون (190) بصيغة الجمع (السّموات معرفة وغير معرفة قال تعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (سورة الكهف ٥١) وفي الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (سورة الذاريات ٤٧). أي بقوة وحكمة وإقتدار تلميحاً إلى ضخامة الكون المذهلة وإحكام صنعه وإنضباط حركاته

([1]) ذكره السيوطي في تفسير الدر المنثور (111/2) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (119/9) والمنداري في الترغيب والترهيب 316/2 وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم 1468 .

([2]) آيات الإعجاز العلمي في السماء. د زغلول النجار مصدر سابق .

ودقة كل أمر فيه من أموره ثبات سننه وتماسك أجزائه وحفظه من التّصدع أو الانهيار فالسّماء لغة هي كلّ ما علاك فأظلّك ومضموناً هي كل ما حول الأرض من أجرام ومادة وطاقة السّماء التي لا يدرك العلم الكسبي إلا جزءاً يسيراً منها

كما تشير الآية ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (سورة الذاريات ٤٧) إلى أن الكون الشاسع الاتّساع الدّقيق البناء المحكم الحركة والمنضبط في كل أموره والثابت في سننه وقوانينه قد خلقه الله تعالى بعلمه وحكمته وقدرته وهو سبحانه الذي يحفظه من الزّوال والإنهيار (وهو القادر على كل شيء)

وإذا كان صدق القرآن الكريم جلياً في إشارته إلى بعض أشياء الكون وظواهره (السّماء) فلابد أن يكون صدقه في رسالته الأساسية (وهي الدين بركائزه الأربع العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات) جليّاً كذلك وهنا يتّضح جانب من أهمّ جوانب الإعجاز في كتاب الله – وما أكثر جوانبه المعجزة – ألا وهو الإعجاز العلمي وهو خطاب العصر ومنطقه وما أحوج الأمة الإسلامية بل ما أحوج الإنسانية كلها إلى هذا الخطاب في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه وزمن العولمة الذي تحاول فيه القوى الكبرى – على ضلالها – فرض قيمها الدينية والأخلاقية والاجتماعية المنهارة على دول العالم الثالث (وفي زمرتها الدول الإسلامية) بحكم غلبتها العلمية والتقنية وهيمنتها الاقتصادية والعسكرية وقد عانت الدول الغربية ذاتها – ولا تزال – من الإغراق المادي الذي دمرّ مجتمعاتها وإلى الحيود عن كلّ قوانين الفطرة السّويّة التي فطر الله سبحانه وتعالى خلقه عليها [1].

(1) آيات الإعجاز العلمي في السماء مصدر سابق ص 77 .

وما أحوج علماء المسلمين إلى إدراك قيمة الآيات الكونية في كتاب الله فيُقبلوا عليها بالتّحقيق العلمي المنهجي الدّقيق بعد فهم عميق لدلالة اللّغة وضوابطها وقواعدها ولأساليب التّعبير فيها وفهم لأسباب النزول ومعرفة بالمأثور في تفسير الرسول ﷺ .

حثّنا القران الكريم إلى النّظر بالبصر والبصيرة في الأرض والتّأمل في آيات الله فهي، التي تهدي النّاظرين والمتفكرين والمعتبرين إلى أن ما فيها من صفات وخصائص، وخلق متقن وحكيم، يدل حتماً على أنّ له خالقاً عليماً حكيماً قوياً قادراً مهيمناً، يصرفه كيف يشاء، وقد تكررت كثيراً من الآيات التي ترشد إلى النظر إلى الأرض والتفكر فيها بطرق وأساليب مختلفة، كلها تؤكد إثبات وجود الله والإيمان به جل جلاله وتنبه على أثار صفاته العلى التي يشاهد الإنسان أثرها أمام عينيه في خلق الأرض وإحكامها وتقديرها وهذا إرشاد خاصّ من الإرشاد العام للقران الذي أرشد إلى النظر والتفكر في الكون بكامله ثم يخصص القرآن من هذا الكون، الأرض والإنسان والنبات والشّمس والقمر وغيرها من المخلوقات التي لفت القرآن النّظر إليها ودراستها لمعرفة الآيات الدّالة على وجود خالقها والمرشدة إلى عظيم صفاته سبحانه وتعالى ومن آيات الله في خلق الأرض وتمهيدها للحياة في ضوء القرآن الكريم امتثالاً لأمر الله تعالى القائل : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (سورة يونس ١٠١).

وإنّ من آيات الله العظيمة وبراهينه القويمة الدّالة على كمال الرّبّ جلاّ وعلا هذه الأرض التي نمشي عليها، ونسير في فِجَاجها، كم فيها من البراهين الدالَّة على كمال الخالق وعظمة المُوجِد سبحانه وتعالى ، يقول الله جلّ وعلا : ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (سورة الجاثية ٣)، ويقول جلّ وعلا : ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ (سورة الذّاريات : ٢٠) ، ويقول جلّ وعلا : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ

﴿ ١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ٢٠ ﴾ (سورة الغاشية ١٧ - ٢٠) .

ما أعظمَها من آيةٍ دالَّةٍ على كمال الخالق جلّ وعلا ، هذه الأرض لم يُوجِدها عزّ وجلّ لعبًا وهَمَلاً وباطلاً تنزَّه ربُّنا عن ذلك، وتقدّس جلّ شأنه - ؛ بل إنّه جلّ وعلا وضعها للأنام وسخّرها لهم وأوجَدَ فيها من النِّعم ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى ليُطيعَه الأنام عليها ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣ ﴾ (سورة الرحمن ١٠ –١٣) .

لقد تفرَّد الله وحده بالخلق والتّدبير ، وأودع في مخلوقاته من عجائب صنعه وعظيم فعله ؛ فشهِدَت له مخلوقاته بالرّبوبيّة، وأقرّ من نوَّر الله له قلبه بالوحدانية، وآية من آيات الله يراها الصّغير والكبير، ويشعر بها الأعمى والأصمّ والسّميع والبصير ، يتقلَّب الخلق عليها ، ثم يودعون فيها خلقها فأبدعها فحمد نفسه لما فرغ من خلقها، فقال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ﴾ (سورة الأنعام ١)، وأقسم بها فقال: ﴿ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴾ (سورة الشمس ٦)، وأقسم بأجزاء منها فقال سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴾ (سورة التين ٣) .

خلقها على غير مثال لها، وبنوره استنارت ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (سورة النور ٣٥)، وأعجز الخلق أن يخلقوا مثلها: ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة فاطر ٤٠) ، وهي أكبر من خلق الناس ؛ ولعِظَم خلقها أقرَّ الكفار بأن خالقها هو الله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (سورة لقمان ٢٥)، وأمر بالتفكُّر فيها: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (سورة الأعراف ١٨٥)، وذمَّ من لم يعتبر بها وبما

فيها : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (سورة يوسف ١٠٥)، وأخبر أنها مليئة بالعبر والآيات : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ (سورة الذاريات ٢٠) .

هي أصل الإنسان ومنها خُلق : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (سورة نوح ١٧)، خلقها قبل السماء كالأساس للبناء في يومين ، ثم خلق السماء في يومين ، ثم دحا الأرض في يومين آخرَين ؛ فأخرج بدحْيها ما كان مُودَعًا فيها، فظهرت العي-ون، وجرَت الأنهار، ونبت الزّرع، ورست الجبال، فأتمَّ الخلق في ستة أيام آخرهن يوم الجمعة ؛ فاتخذه المسلمون عيدهم في الأسبوع

ثم بعد خلقها استوى الرحمن على عرشه وقال للسماء وللأرض بما فيها من جبال ثقال ، وبحار زاخرات:﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (سورة فصلت ١١)، خلقها سبع أرضين كل واحدة فوق الأخرى، ومدَّها ووسَّعها فلم تضق يومًا على ساكنيها، وسلك فيها سبلًا لا يتيهون فيها، وذللها لخلقه فالإنس -ان والطير والحيوان يثيره -ا، قال جل ش -أنه : ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ (سورة البقرة ٧١).

ظهرها سَكَنٌ للأحياء وبطنها نُزُل للأموات، في جوفها ماء وحولها ماء ولا تميد، وبفضله كف البحر أن يطغى على يابسها ، وأمسك السماء أن تقع عليها، أرساها بجبال شامخات لئلا تضطرب وأحسن نصبها، ورفعها فأحسن هيئتها، وجعلها صلبة لا تضمحل مع تطاول الزمان، خشعت جبالها لخالقها ، وتسجد له ، وتهبط من خشيته ، وأبت وأشفقت من حمل الأمانة.

وفيها بحار تمخر الفلك فيها وتحمل الثقال، وما في بحارها مأكول حلال ولو كان ميتة قال تعالى ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ (سورة المائدة ٩٦) .

وأنهارها حُلوَة عذبة تنبع في موطن ويسوقها ربها إلى موطن آخر رزقًا للعباد، قطعها متجاوراتٌ تُسقَى بماءٍ واحدٍ فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون ، والشكل ، والطعم ، والرائحة، منها غذاء ، والآخر دواء ، وفيها داء ، ونباتها بقدر موزون ، قال ج ـل ش ـأنه: ﴿ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾ (سورة الحجر ١٩).

قال ابن القيم - رحمه الله: «لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع، تعجز عقول البشر عن الإحاطة بها وتفصيلها»[1].

وطيورها وسباعها وبهائمها أممٌ شتى تبهَر العقل من عجائبها وإتقان خلقها ، قال جل شأنه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ ﴾ (سورة الأنعام ٣٨)، مليئة بالخزائن والأرزاق : ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾ (سورة المنافقون ٧).قال النبي ﷺ: «وإني أُعطيت مفاتيحَ خزائنِ الأرض»[2]؛ قال أبو هريرة ﷺ فذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثِلُونها؛ أي: تستخرجونها.

قال القرطبيّ رحمه الله «ملكت أمته من الأرض ما لم تملكه أمّةٌ من الأمم»[3].

والله تكفَّل برزق جميع من عليها: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا ﴾ (سورة هود ٦)، وخزائنها تفتح بالطاعات: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (سورة الأعراف ٩٦) .

([1]) إعلام الموقعين لابن القيم - مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة 1388هـ/1968م

([2]) متفق عليه صحيح البخاري مع الفتح كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهيد 3/248- 249 حديث 1344 وصحيح مسلم كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ 4/1795 حديث برقم 2296 .

([3]) الجامع للأحكام القرآن للقرطبي

حلالها كثير، وبركاتها وفيرة، واللبيب يستغني بحلالها عن حرامها ، وبالقناعة عن إثمها، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ (سورة البقرة ١٦٨) .

جمالها وما عليها من زينة للابتلاء والامتحان، قال عز وجل ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ (سورة الكهف ٧) .

وفاضَلَ سبحانه بين أرضه الواسعة فاختار منها أماكنَ جعل منها خيرَ البقاع وأشرفها، فمن قَصَدَ بيت الله الحرام مخلصًا له العمل غُفِرت له ذنوبه، قال ﷺ: «من أتى هذا البيت فلم يرفثْ ولم يفسقْ رجع كيوم ولدته أمه »[1] .وليس على وجه الأرض بقعة يجوز الطواف بها سوى كعبة الله المشرفة، وليس فيها موضع يُشرع تقبيلُه واستلامه سوى الحجرِ الأسود والركن اليماني من الكعبة، ونهى التعبُّد في موضع يُشرَك فيه مع الله.

نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة فسأل النبي ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟ ». قالوا لا ، قال «هل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟ ». قالوا لا ، قال «أَوفِ بنذرك»[2] . والأرض تشرف بما يقع عليها من أعمال صالحة . والله إذا أحبَّ عبدًا كَتَبَ له المحبة فيها، والعالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، والأرض لا تأكل أجساد الأنبياء بعد موتهم، وفي الإنسان عظمٌ لا تأكله الأرض فيه يُركب يوم القيامة، وصلاحها بالطاعة وفسادها بالمعاصي ،قال جل شأنه: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ﴾ (سورة الأعراف: ٥٦)

والأرض مُحكمة البناء لكن من عظم ذنب الشرك تكاد تنشق، قال عز وجل:

([1]) أخرجه مسلم في صحيحه برقم 1350 .

([2]) رواه أبو داود سنن أبي داود الصفحة أو الرقم 3313

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾ (سورة مريم ٩٠ - ٩١).

والأرض لله نهى أن يُمشَى عليها ببَطَرٍ أو كبر أو معصية ؛ قارون أعرض عن الله فخُسِف به وبداره، «وبينما رجل يمشي قد أعجبته جمته - أي: شعره إلى منكبيه وأعجبه بُردَاه إذ خسف به الأرض، فهو يتجلجل في الأرض حتى تقوم الساعة»[1] .

وكل ما فيها من حركة أو سكون مكتوبٌ عند الله ، قال عز وجل: ﴿ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (سورة الأنعام ٥٩).

وهو سبحانه لا يغيب عنه شيءٌ مما في كونه ، قال جلّ شأنه ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾ (سورة المؤمنون ١٧)، يقضِي حوائج عباده بتفريج كربهم ، وإنزال النعم والهبات عليهم: ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ (سورة الرحمن ٢٩).

وفي آخر الزّمان تكثر الزّلازل وتظهر خسوفات إيذانًا بطَي الأرض وزوالها، وتقوم السّاعة على شرار الخلق، قال ﷺ: «لا تقومُ السّاعةُ حتى لا يقالَ في الأرض الله الله»[2] .

وإذا جاء أمر الله تتزلزل الأرض جميعها، وتحمل وتُرجُّ رجًّا وتُدكُّ دكَّةً واحدة، وتلقي ما في بطنها من الأموات وتتخلَّى عنهم ، وأوّل من تنشق عنه الأرض نبيُّنا محمد ﷺ وتحدّث يومئذ أخبارها، وتشهد على النّاس بما عملوا على ظهرها من خير أو شر، ويطوي الله السّماوات ثم يأخذهن بيده ثم يطوي الأرض بيده، ثم يقول «أنا الملك أين الجبّارون؟ أين

---

(1) رواه مسلم صحيح مسلم – كتاب اللباس والزينة باب تحريم التبختر في المشي 3/1653 حديث 2088 .

(2) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب ذهاب الإيمان آخر الزمان 1/131 حديث 148

المتكبّرون؟». وتبدل الأرض ويُحْشر النّاس على أرضٍ غيرِ هذه ، قال النّبيّ ﷺ: «يُحشَر النّاس يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ - أي: شديدة البياض - كقرصة نقي - أي: كالدّقيق النّقي - ، ليس فيها علم لأحد - أي: ليس عليها علامة سكنى أو بناء أو أثر»[1] .

ولله الأمر من قبل ومن بعد وإليه يُرجع الأمر كله؛ خلق فأتقن ما صنع ، وابتلى من خلق، والسعيدُ من نال مرضاته ، ووحَّد خالقه ، قال تعالى:﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة لقمان ١١).

المبحث الثّالث

مفسـدات الفطـرة

المطلب الأوّل اتباع الشّيطان

فقد بدأت أول ممارسات الشيطان في الغواية والعداء لبني آدم حينما امتنع عن السجود لأبي البشر آدم عليه السّلام قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

([1]) متفق عليه صحيح البخاري مع الفتح كتاب الرقاق باب يقبض الله الأرض يوم القيامة 11/379 حديث 6521 – ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب البعث والنشور وصفة الأرض يوم القيامة 4/2150 حديث 2790 .

شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ (سورة الأعراف ١١ –١٨) .

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم تأثير الشيطان على فطرة بني آدم ودوره في إنحرافهم عن الحق وذلك في قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ﴿٦٣﴾ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (سورة الإسراء ٦٢ – ٦٤).

والمقصود بهذه الآيات أن الله تعالى ابتلى عباده بهذا العدو المبين فأجلبَ عليهم بخيله ورِجْله أي دعاهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله وشاركهم في أموالهم وأولادهم وهذا يشمل كل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم ومع هذا كلّه يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها بالأجر لأنه أضلّهم حتى ظنّوا أنّهم على الحقّ (1).

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [سورة النحل ٦٣] وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ (سورة النساء ١١٨ - ١٢٠).

(1) أنظر تفسير السعدي 3/120 – 121 .

ففي هذه الآيات بين الله تعالى أن الشيطان لم يقتصر على مجرد الإضلال بل تجاوز حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال فزادهم شراً إلى شرهم حيث مناهم أن ينالوا ما يناله المهتدون وهذا هو الغرور بعينه عياذاً بالله منه .

وقد أشار النبي ﷺ في عدة أحاديث إلى تسليط الشيطان على الإنسان منذ ولادته واستمراره معه مدى الحياة قال ﷺ " ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وأبنها " [1]، قال القرطبيّ هذا الطّعن من الشّيطان هو ابتداء التّسليط "[2].

وقال ﷺ إن الشّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم [3]. ومن أصرح الأحاديث في إفساد الشّيطان للفطرة قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم [4] وقد سلك الشيطان عدة مسالك في إفساد الفطرة ومن أبرزها الوسوسة والتشكيك ومن صور التشكيك التي سلكها [5] قوله ﷺ لن يدع الشيطان أن يأتي أحدكم فيقول من خلق السموات والأرض ؟ فيقول الله فيقول فمن خلقك ؟ فيقول الله فيقول من خلق الله ؟ فإذا حس أحدكم بذلك فليقل آمنت بالله وبرسله [6] .

([1]) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله وأذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا 1265/3 ومسلم في صحيحه باب فضائل عيسى عليه السلام 1838/4 حديث رقم 2366 .

([2]) فتح الباري لابن حجر 541/6 .

([3]) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه كتاب الاعتكاف باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه 717/2.

([4]) الراوي- المحدث ابن تيمية المصدر مجموع الفتاوى الصفحة أو الرقم 466/10

([5]) أنظر عالم الجن عبيدات 529 – 536 .

([6]) أخرجه ابن حبان بلفظه في صحيحه كتاب الإيمان باب التكليف ذكر الأمر للمرء بالإقرار لله جل وعلا بالوحدانية ولصفيه ﷺ بالرسالة عند وسوسة الشيطان إياه 362/1 .

وقد أوقع الشيطان بهذا الأسلوب كثيراً من الناس في الزندقة والإلحاد – عياذاً بالله ومن تشكيكه في اختصاص الله بالعبادة تزيينه للناس تلقي التحريم والتحليل من غير الله تعالى كما قال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (سورة التوبة ٣١).

ومن أبشع ما وقعت فيه البشرية قديماً وحديثاً من عبادة الشيطان التي حذر الله تعالى منها في الآيات السابقة عبادة طائفة من البشر لذات الشيطان عبادة وخضوع وتقديس وتذلل وهؤلاء هم الطائفة التي تسمّى "عبدة الشّيطان"[1].

ومن صور الوسوسة والتشكيك في كثير من شؤون الإنسان الدينية والدنيوية فعن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال قلت يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقرائتي يلبسها علي فقال رسول الله ﷺ ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه وأتفل عن يسارك ثلاثاً قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني"[2] وقال ﷺ" إن للوضوء شيطاناً يقال له الولهان فأتقوا وسواس المٰاء[3] وقال ﷺ ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير[4].

([1]) أنظر حول هذه الطائفة عالم الجن عبيدات 550- 565 .

([2]) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه كتاب السلام باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة 4/1728 حديث رقم 2203 .

([3]) أخرجه الترمذي في سننه بلفظه كتاب الطهارة باب ما جاء في كراهية الإسراف في الوضوء بالماء 1/84 وأحمد في مسنده الحديث رقم 21276 .

([4]) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً 4/2167 – 2168 حديث رقم 2814 .

ولا أشكّ أن الشّيطان هو أعظم الأسباب إفساداً للفطرة فكل شر وفسوق وكل بداية لفكرة ظالمة أو عقيدة منحرفة وكل بداية سير في طريق الشهوة خاسرة وتزيينٍ للدنيا واعتبارها غاية عالية كل هذا وغيره بسبب الشيطان وتزيينه وإضلاله ولأجل هذا أمرنا الله بالحيطة والحذر والاستعاذة منه ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ (سورة البقرة: 168) وقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (سورة فصلت: 36).

المطلب الثّاني : بيئة الكفر.

إنّ الله قد أخذ الميثاق على بني آدم ف العهد الأول إذ قال لهم: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ ﴾ (سورة الأعراف 172)، فأقروا عند ذلك بأن لهم رباً وصانعاً خلقهم، ولإقرارهم بذلك فطرهم عليه بعد ذلك، فهم على تلك الفطرة السليمة التي فطرهم الله عليها، حتى طرأ عليهم من خارج ما ينسيهم ذلك العهد والميثاق، من تقليد الآباء واتباع عادتهم التي خالفت الفطرة وأفسدتها، وبيئتهم التي نشأوا عليها، وهذا كما قال تعالى حكاية عن من كان هذا سبيله ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ (سورة الزخرف ٢٢) .

وكذلك لّما قال إبراهيم – عليه السّلام لقو م ه: ﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ ﴾ (سورة الشعراء ٧٢ –٧٣) عدلوا عن جوابه فق ـالوا ﴿ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴾ (سورة الشعراء ٧٤) فأخبروا أن اتباعهم آبائهم وتقليدهم إياهم ومع تأثرهم بالبيئة التي نشأوا فيها، قادهم إلى عبادة الأوثان والكفر بالله، وإنكار الله عز

وجل وفطرته التي فطرهم عليها، فكان هذا تصديقاً لقوله — صلى الله عليه وسلم: "فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ." [1].

قال ابن حجر في (الفتح) معلّقاً على هذا الحديث "فالله عز وجل قد فطرهم على الإنكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان، فأخذ من ذرية آدم الميثاق حين خلقهم فقال ألست بربكم؟ قالوا جميعاً بلى، فأما أهل السعادة فقالوا بلى على معرفة له طوعاً من قلوبهم، وأما أهل الشقاء فقالوا بلى كرهاً لا طوعاً ." [2]

قال الطبري عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ (سورة النمل ٤٣) المعنى فيه لم يصدها عن عبادة الله جهلها، وأنها لا تعقل، إنما صدها عن عبادة الله عبادتها الشمس والقمر، وكان ذلك من دين قومها وآبائها، فاتبعت فيه آثارهم" [3].

وذكر ابن الجوزيّ عن الزّجّاج: قوله "المعنى صدّها عن الإيمان العادة التي كانت عليها، لأنّها نشأت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشّمس، وبيَّن عبادتها بقوله "إنّها كانت من قوم كافرين"، وقرأ سعيد بن جبير، وابن أبي: عبلة "أنّها كانت" بفتح الهمزة" [4].

قال الزّمخيليّ "وصدّها ما كانت تعبد من دون الله، إنّها كانت من قوم كافرين أي ومنعها عن عبادة الله وإظهار الإسلام ما كانت تعبد من غير الله وهو عبادة الشّمس، فإنها كانت من قوم وثنيين كانوا يعبدون الشّمس فتأثرت بالبيئة التي نشأت فيها، ولم تكن قادرة

([1]) صحيح البخاري (114/06، برقم(4775) ، كتاب تفسير القرآن ، باب (لا تبديل لخلق الله الروم 30 لدين الله

([2]) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر (248/3- 249)، وتحرير المقال في موازنة الأعمال وحكم غير المكلفين في العقبى والمآل لابن عطية (682/2).

([3]) جامع البيان للطبري (471/19)..

([4]) زاد المسير في علم التفسير (365/2).

على تغيير عقيدتها، حتى جاءت إلى بلاد سليمان الذي أحسن عرض الإسلام عليها، وأقنعها بصحّته ووجوب الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته فهو ربّ الكون جميعه، وربّ الكواكب كلها، شمسها وقمرها ونجومها العديدة"[1].

فكلمّا بقي الإنسان في بيئة الكفر والضّلال ابتعد عن الفطرة الصّحيحة وقع في الضّياع، وفسدت فطرته السّليمة التي فطره الله عليها، وما صورة الإنسان في بعض المجتمعات الضالّة، وحالة الخواء الرّوحي التي تؤدي به إلى الضّلال إلا صورة من الانفكاك عن مستلزمات هذه الفطرة ومقتضياتها

فالخضوع للعادات الموروثة، والتبعية للآباء والأجداد في ذلك، هي من مفسدات الفطرة، ويشهد له قوله تعالى ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (سورة الصافات ٦٩ – ٧٠) وقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾(سورة الزخرف ٢٣) .

ولا يفوتنا هنا أن نقول إن الإنسان إنما هو مجموعة مركبة الروح والجسد، والماديات والمعنويات، وليس أحدهما دون الآخر، وعليه فالنفس تهوى الشهوات المادية وتتوق أياماً إلى القيم العقلية، وقد ألهمت كلا من الفجور والتقوى وهي تستشعر كلا الميلين وتدرك الأمرين في ظل الظروف السوية والطبيعية، قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ (سورة الشمس ٧ – ٨) .

([1]) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للزحيلي (305/19).

فالقرآن الكريم يصرّح بأنّ للنفس الإنسانية موقفاً تجاه الخير والشّر، والفجور والتّقوى، بمعنى إنّه إذا اقترف السيئة لام نفسه، وإذا اقترف الحسنة أحسّ بالرّضا والسّرور، ومن البديهي أنّ هذه الحالة إنّما تكون في الإنسان الذي لم يتلوث قلبه بغبار المعاصي والآثام

إذن فإنّ ثمّة حقيقة تكمن في أعماق روح الإنسان تجعله يميّز بين الخير والشرّ [1]، قال تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ (سورة الشمس ٨) ذلك أن التسوية للإنسان حاصلة من وقت تمام خلقه جنيناً في بطن أمه، ثم من أول أطوار الصّبا ؛ إذ التسوية تعديل الخلقة، وإيجاد القوى الجسدية والعقلية، ثم تزداد كيفية القوى فيحدث الإلهام

وقد نهى الله عن الشرك بما يدل على أن انحراف الفطرة من ضروب الشرك، والذي هو الكفر، وأن المبدلين لفطرة الله تعالى يشركون به، فيختلفون في معتقداتهم وسلوكهم باختلاف أهوائهم وشهواتهم، واختلاف نحل من يستدرجونهم للضلال والباطل، ويتفرقون فرقاً تشايع كل منها عقيدتها الزائغة وإمامها الذي أضلها، فهي فرق شر في مزاعمها الباطلة، ومذاهبها المنحرفة، كل حزب منها فرح بما لديه، يظن أنه على حق، والحق لا يتعدد، فإنه صراط الله المستقيم

وقد جاءت الأحاديث مبينة لهذا المعنى، عن أبي هريرة – رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ ثم يقول أبو هريرة واقرؤا إن شئتم: ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾(سورة الروم ٣٠) .

([1]) أسس التربية والتعليم في القرآن والحديث – الشيخ محمد رضا فرهاديان (ص 32).

إن الإنسان يولد على الفطرة الكاملة السليمة، التي لا تشوبها شائبة تكدر صفوها، أو تؤثر على جبلتها كما تولد البهيمة مجتمعة الأعضاء، سليمة الحواس، لا نقص فيها، وإنما يعرض للفطرة ما يعرض لها من تغير وتبديل وزيغ وانحراف تحت تأثير العوامل التي تحيط بها من بيئة خاصة كبيئة المنزل، أو بيئة عامة من بيئات المجتمع، فالتعبير بالأبوين وأثرهما في التهويد والتنصير والتمجيس رمز للمؤثرات الخارجة على الفطرة شأنها شأن ما يعرض للبهيمة التي تولد كاملة الأعضاء، فيطرأ عليها ما يطرأ من نقص وفساد، ولم يذكر الإسلام في العوامل المؤثرة للدلالة على أنّه دين الفطرة، وهذه الفطرة هي الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (سورة الأعراف ١٧٢ ـ١٧٣) [1].

المطلب الثّالث قرناء السوء

الإنسان مخلوق اجتماعي، منفعل ببيئته، متأثر بها ومؤثر فيها، ولا يستطيع أحد أن يدعي أنه يمكنه العيش في مجتمع فاسد أو بين أناس فاسدين من دون أن يتأثر بهم بنحو من التّأثُر، فعن أبي هريرة – قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل ."[2]

وقد ورد في القرآن الكريم، مثلا للرفيق السيء الذي يندم المرء يوم القيامة بسبب مصاحبته في الدنيا، واتخاذه صاحباً، يقول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ

([1]) الحاجة إلى الرسل لمناع القطان(176/7).

([2]) سنن أبي داود (259/4 ، برقم 4833) وسنن الترمذي (589/4 برقم 2378).

يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الفرقان ٢٧ - 29].

وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن الانحراف الذي أصاب سلوك هذا الظالم، وفطرته السليمة، تأتي من مرافقته لخليل استطاع أن يضله بالرغم من معرفتهبكلام الله – الذكر وبدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم.[1]

فالقرين يمكنه التأثير في قرينه، خاصة إذا كان بمثابة القدوة، ويكون ذلك عن طريق الإغواء الفكري يتأثر الإنسان عموماً بأفكار من يرافقه، كما مر في الحديث السابق، وللقرين، المقارب في العمر تأثير مضاعف، يقول تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾ (سورة الصافات ٥١ - ٥٥) الإغواء الفكري، بحسب ما يتضح من هذه الآية يتم عبر التوجه إلى العقول الضعيفة أو الجاهلة، بأدلة ظاهرها منطقي وواقعها مزيف، ومنها الإغواء النفسي والعاطفي وهو ثمة طريق آخر للإغواء وهو الإغواء عبر التأثير في العواطف، لذلك يقول تعالى: ﴿ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ (سورة فصلت ٢٥)، ويتم ذلك بتعبير الآية عبر التزيين والتزيين تجميل مصطنع، يعتمد على الإغواء النفسي والعاطفي بإظهار الأمور على غير حقيقتها، بطريقة تميل إليها النفس وتهواها[2].

([1]) النهي عن القدوة السيئة وبيان أضرارها، علي بن نايف الشحود (ص 32) نقل بتصرف

([2]) النهي عن القدوة السيئة وبيان أضرارها، نقل بتصرف (ص 33).

فقرناء السوء هي من أشد مفسدات الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فقرين السوء بمجالسته ومخالطته يسبب في انحراف الفطرة السليمة، حيث يزين الباطل ، ويصدّ عن طريق الحق، ويفسد الطاعة، ويجعل قرينه بعيداً عن الحق وأهله، ويرشده إلى طريق الخسارة في الدنيا والآخرة، فالمجالسة تؤثر في الإنسان تأثيراً كبيراً، والقرين بالمقارن يقتدى – كما هو معروف والمرء على دين خليله، فالإنسان يتأثر بجلساءه سواء أكانوا من الإنس أم كانوا حتى من شياطين الجن، فإن الإنسان إذا كان يتعاطى الأمور الرديئة، ويقلل ذكر الله تعالى، ويكثر الوقوع في المعاصي ومجالسة الأشرار، والحضور في أماكن الذنوب والمواقع التي تكثر فيها الشياطين ؛ فإن هذا يورث قلبه ضعفاً، ويورث الشياطين جراءة عليه، وبهذا ينحرف عن فطرته السليمة التي فطره الله عليها

قال الطبري "وبعثنا لهم نظراء من الشياطين، فجعلناهم لهم قرناء قرناهم بهم يزينون لهم قبائح أعمالهم، فزينوا لهم ذلك"، وقد نقل الماوردي أقوال المفسرين في معنى هذه الآية، أحدها ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة، قاله السّدي ومجاهد، الثّاني ما بين أيديهم من أمر الآخرة، فقالوا لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب، وما خلفهم من أمر الدنيا فزينوا لهم اللذات، قاله الكلبي الثالث ما بين أيديهم هو فعل الفساد في زمانهم وما خلفهم هو ما كان قبلهم، حكاه ابن عيسى، الرابع ما بين أيديهم ما فعلوه، وما خلفهم ما عزموا أن يفعلوه، ويحتمل خامساً ما بين أيديهم من مستقبل الطاعات أن لا يفعلوها وما خلفهم من سالف المعاصي أن لا يتوبوا منها. [1]؛ وذكر القرطبي قول النقاش "أي هيّأنا لهم شياطين، وقيل سلّطنا عليهم قرناء يزينون عندهم المعاصي، وهؤلاء القرناء من الجن والشّياطين ومن الإنس أيضاً، أي سببنا لهم قرناء، يقال قيض الله فلاناً لفلان أي جاءه به وأتاحه له، ومنه قوله تعالى "وقيضنا لهم قُرناء"، وقيل المعنى أحوجناهم إلى

([1]) النكت والعيون للماوردي (178/5).

الأقران، أي أحوجنا الفقير إلى الغني لينال منه، والغني إلى الفقير ليستعينً به فزيّن بعضهم لبعض المعاصي.[1]

الخاتمـــة

وأحمد الله على عونه وتوفيقه على تمام هذا البحث أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع به ويثيبني عليه إنه ولي ذلك والقادر، والحمد لله على التّمام والصّلاة والسّلام على خير الأنام وبعد

أدلف إلى بيان بعض النتائج التي توصّلت إليها وتوصياتي التي أتقدّم بها بين يدي القارئ الكريم

أولاً النتائج

-الفطرة هي العهد القديم بين الله وبين كل الآدميين، وهي مركوزة في نفوسهم أزلاً

-الاهتداء بهدي الأنبياء والمرسلين من أهمّ مُوقظات الفطرة ومنشّطاتها على الطريق القويم.

-اتّباع الهوى والشيطان يورث فساد الفطرة عن المسلم.

-الرّكون إلى الكافرين والانسجام مع مبادئهم يقود إلى انحراف الفطرة.

-اختيار البيئة المسلمة والوسط المعافى من الأصدقاء والأقران يساعد على استقامة الفطرة.

ثانياً التّوصيـات

من أهمّ ما أوصي به في هذه الدّراسة

1/ تقوية الصّلة بيننا وبين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تعلماً وتعليماً

2/ إدامة الفكر والنظر إلى مخلوقات الله الدالة على عظمته تقوي إيماننا بالله رب العالمين

([1]) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (355/15).